عرض جديد لمقامات التصوف

الزهد الصوفى

قوة إيجابية ورسالة تربوية

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

(١)

. . . إن العلم والحياة فى طريقهما إلى التصوف ، ومن ثم يجب أن تسهم الأقلام فى هذا التطور الإنسانى التاريخي ، بعرض المنهج الصوفى ، عرضا علميا واعيا يصله بالحياة الصاعدة ، ويجعله رسالة الحياة المؤمنة المجاهدة .

قال المريد لشيخه :

إن فى النفس لحاجة من هذا الزهد الصوفى ، فقد أسرف المتصوفة فى التغنى به ، والثناء عليه ، وجعلوه عنوانهم وحياتهم ، واشترطوه أساساً لمنهجهم وسلوكهم ، وتنادوا بأنه شعار الأنبياء ، ومنهج الأصفياء ، وصبغة المتقين السالكين إلى ربهم ! ! ؟

وهذا الزهد الذى تغنوا به مدحاً وإكبارا ، وإعجاباً وافتخاراً ، لا تستقيم موازينه فى منطق حياتنا ، وواقع وجودنا .

إنه لتراث الضعفاء الأذلاء ، وشعار العاجزين المنهزمين المعرضين عن جمال الوجود ، الهاربين من آفاق الصراع ، ونبل الكفاح .

إنه الكسل والخمول ، والعجز عن الوثوب إلى آفاق السيادة والعزة .

والإسلام دين بأس وقوة ، وعمل وامتلاك ، وتفوق وحضارة .

والإسلام دين الحياة بأوسع معانى الحياة ، يقول كتابه المقدس : « قل من حرم زينة الله » . « وكلوا من طيبات ما رزقناكم » . « وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين » . « والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين » .

وهل ينبت الزهد عزة ؟ وهل ينجب الزهد قوة ؟ وهل يسهم الزهد فى مجد أو سيادة ؟

قال الشيخ لمريده :

خفف عن نفسك يا بنى ، وانفض عن قلبك هذه الأباطيل ، ولا يخدعنك البريق الزائف ، عن الجوهر المكنون .

إن سر ضعفنا ، هو ابتعاد قلوبنا ، وعجز عقولنا ، عن فهم أسرار ديننا ، لقد انقلب كل شىء فى موازيننا ، وانفصل ما بيننا وبين روح رسالتنا . حتى أحلنا كل ماهو قوة وعزة وتربية ، فى عقائدنا إلى أشباح باهتة هزيلة عاجزة .

لقد أكبرنا هذه الدنيا فعبدناها ، حتى خدعتنا مظاهرها وشهواتها عن الينابيع السماوية التى أمدتنا فى ماضينا بالبأس القوى ؛ والخلق الأبى ، والمنهج السوى .

لقد تباعد ما بيننا وبين ديننا ، حتى عجزنا عن فهمه وتذوقه ؛ فتمسكنا بالقشور ، وجمدنا عند الألفاظ ، وعشنا داخل أصداف ، لا ترى الشمس ، ولا تعرف النور .

إن التصوف يابنى : منهج ورسالة ، وعجزنا عن فهم منهجه هو الذى قعد بنا عن إدراك عظمة رسالته .

وكل مقام فى التصوف ، هو جوهر يشع بالنور ، ونبع يتدفق بالخير ، وأفق يموج بالإلهام ، ومنطق يصنع الحياة السامية البانية المتطورة .

ولكنه منطق يحتاج إلى ذوق ووعى وإيمان ، وكلما قربنا من هذا المنطق ، تفتحت قلوبنا على الجلال والكمال والإشراق الصوفى ، بل قربنا من القوى العليا التى تزودنا بالأسلحة الحاسمة المنتصرة ، فى خطونا الحضارى ، وفى أفقنا المثالى .

فالزهد الصوفى يا بنى ، ليس ضعفاً ، ولا انعزالا ، ولا عجزاً ، ولا هروبا من واقع الحياة ، ولا ابتعاداً عن ميادين الصراع .

إنه أعلى مقامات القوة والفتوة ، وأعز منازل العزة والسيادة ، وأعظم فتوحات الحياة الروحية والمادية ، إنه التربية العالية ، والأخلاق الفاضلة ، والقوة الإيجابية الصانعة الملهمة .

هو الترفع والتسامى عن الشهوات والدنايا ، هو امتلاك النفس ، وقهر الهوى ، هو تربية الإرادة ، وتنمية العزيمة . هو الرياضة والمجاهدة ، هو المنهج التربوى العالى ، الذى تنبثق منه رسالة التفوق والتسامى ، فى كل ميدان ، وفى كل معركة ، حسية أو وجدانية ، روحية أو مادية .

فليس الزهد الصوفى ، كما يخيل للتافهين الجاهلين ، هو الذلة والمسكنة ، والفقر والمتربة ، والضعف والحاجة ، والكسل اللاصق بالأرض ، القانع بالدون من الحياة .

إنه زهد تربية ، لازهد مسغبة ، إنه زهد النفس التى تعف فيما تملك ، إنه ترفع النفس عن أن تمد عينيها إلى مالا تملك .

إنه العزة التى لايذلها مطمع من مطامع الدنيا ، ولا تغريها شهوة من شهواتها .

إنه زهد القلب ، وعفة الروح ، وطهارة الجوارح ، إنه التجرد الكامل ، من رق النفس وأهوائها ، ورق الحياة ومطالبها ، أو كما يقول شيوخ الصوفية : « أن تكون الدنيا كلها فى يدك ، وليس فى قلبك منها شىء » .

إنه تصعيد الغرائز الهابطة إلى الآفاق العالية ، إنه توجيه الطاقات البشرية وحشدها وتركيزها على هدف وغاية ، ومنهج ورسالة .

إنه زاد التقوى ، ودرع المجاهد ، وعفة العالم وعدالة الحاكم ، ونبض الحياة الدافق ، فى المجتمع الطاهر ، إنه الإنسانية المثالية ، فى دنيا ربانية .

يقول شيخنا ، بنان الحمال ، متحدثاً عن الحرية والعبودية ، فى منطق الصوفية .

الحـــر عبد ما طمع والعبـــد حر ما قنع

ويقول شيخنا ذو النون المصرى ، مصورا لعزائم الصوفيه ، الذين زهدوا

فى الدنيا ، زهد عزيمة ورسالة ، فلم تتفرق بهم الأهواء ، ولم تتبدد طاقاتهم مع الشهوات ، بل استهدفوا مثلهم الأعلى ، ومضوا إليه مجاهدين أعزة أقوياء .

لذ قوم فأسرفوا ورجال تقشفوا
جعلوا الهم واحد ومضوا ما تخلفوا

ويقول شيخنا ، بشر بن الحارث ، عن عزه الشامخ ، الذى انبثق من امتلاكه لنفسه .

أفادتنى القناعة أى عز ولا عز أعز من القناعة

وصلوات الله وسلامه على رسولنا إذ يقول فى منطق مبين : « تعس عبد الدنيا ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة » .

فالزهد الصوفى ، هو الحرية الكاملة ، حرية النفس والحس ، والعقل والقلب من رق الشهوات ، وعبودية النزوات ، ورهبة الدنيا ، وما فى الدنيا .

هو الذى وهب الصوفية تلك العظمة النفسية الشامخة ، والشجاعة الروحية العالية ، والفدائية البطولية المعجزة .

هو التحرير الكامل ، من كل ما يستعبد الإنسان ليصبح عبداً موحدا ، توحيداً صافياً .

ثم هناك يابنى : الجوهر الصوفى الأعلى ، وهذا الجوهر الأعلى هو سر التصوف بأسره . هو المصباح الذى يكشف لك حقائقه ومناهجه ، ويأخذ بيدك إلى معانيه ومعاليه ، هذا الجوهر ، هو تركيز كل القوى الروحية ، وكل الطاقات القلبية ، حول هدف أعلى ، حول مالك الملك والملكوت ، حول فاطر السموات والأرضيين .

فإذا ارتفع الصوفى بزهده فوق دنياه ، تطلع إلى الله فناجاه ، ثم اصطفاه ربه فطهره وزكاه واجتباه ، فطوبى له فى الحياة ، ثم طوبى له فى الحياة ، الحياة المطمئنة الراضية الناعمة الصافية . وكما يقول الشاعر الصوفى :

رضيت بالله فى عسرى وفى يسرى فلست أسلك إلا واضح الطرق

وهكذا سلك الصوفية أوضح الطرق فى جهادهم للحياة ، وفى سيرهم إلى الله . . وإلى مقال تال ، حيث ندير الحديث ، حول مقام آخر من مقامات النور الصوفى ، والمنهج الروحى ؟